يسوع المسيح بين التاريخ والتأريخ

الخوري جان عزّام

مقدمة

١- خلاصة البحث عن يسوع التاريخي

يمكننا اختصار مسألة البحث عن يسوع التاريخي بثلاث مراحل سبق للأب جاك شلوسر أن عرضها في محاضرتين، وأكتفي بالتذكير بالعناوين الكبرى:

أ- المرحلة الأولى: الفصل بين "يسوع التاريخ" و"مسيح العقيدة".

ب- المرحلة الثانية: العودة إلى يسوع التاريخي في أصالته.

ج- المرحلة الثالثة: العودة إلى يسوع التاريخي في محيطه، وهي المعروفة بالبحث الثالث.

٢- بين التاريخ والتأريخ

لا بد من التذكير هنا بالمفهوم المطلق للتاريخ كأحداث ينظر إليها بحد ذاتها لتصويرها وإخبار كيفية حدوثها والوقت الذي حدثت فيه... وهذا ما نسمّيه المفهوم الكرونولوجي- التأريخي للأحداث، وهنالك بالمقابل المفهوم الأوسع للأحداث من حيث النتائج المباشرة وغير المباشرة التي تصدر عنها، وتتخطى بالتالي معناها الكرونولوجي (التأريخي الوصفي من الخارج) إلى إظهار معناها الحقيقي الذي تجلى في مجموعة الأحداث التي ارتبطت بها ونتجت عنها، وهذا ما نسميه المفهوم الكيروسي-الفاعل عبر الزمن للحدث. وغني عن القول بأن الكتاب المقدس لا يكاد يتضمن سوى القليل جداً من الأحداث الموصوفة

في بعدها الكرونولوجي، بينما أكثر نتاجه الأدبي يهدف للتعبير عن المفهوم الكيروسي للأحداث. وهذا ما يعبر عنه بالمفهوم الخاص لمعنى الكلمة كما سنشرح فيما يلي.

١- يسوع المسيح الكلمة-الحدث

لم يكتب الله شيئاً بطريقة مباشرة، الذي صنعه الله أساساً هو أنه عمل. عرّف نفسه بعمله.الكتاب المقدس لا يحتوي أساساً على حقائق ذهنية، ولكنه يُشير بالأحرى إلى العجائب التي صنعها الله في تاريخ البشرية بأنه خلّص البشر. بهذه الطريقة نفهم بأنه بالنسبة إلى الكتاب المقدس لا يوجد فرق بين الكلمة والحدث، وذلك مهمّ. عندما نقرأ: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة كان الله" (يو١ : ١)، نحن لا نفهم جيداً، لأنه بالنسبة إلى عقليتنا الغربية الكلمة لها علاقة مع الذكاء فقط، الكلمة بالنسبة إلينا هي "فكرة"، نحن نفهم الكلمة كشيء يعلّمنا شيئاً ذهنياً، فهي بالنسبة إلينا مجرّد فكرة أو مفهوم. ولكن الأمر واضح منذ البدء: فالكلمة قريبة جداً من الفعل؛ قال الله: "ليكن نور"، فكان النور. لا يمكن أن نفصل كلمة الله عن تتميم هذه الكلمة: فهما الشيء نفسه. الكلمة هي عمل من خلاله يُظهر الله نفسه.

يحدث الشيء نفسه في الإنجيل. نقطة الإنطلاق هي حدث تاريخي، حدث يصنعه الله. من خلال هذا الحدث يعرف الناس الله، لأنّ فيه يُظهر نفسه. ويسمح بأن نعرفه. ليست الكلمة إعطاء تعليم نظريّ، بل شخص آخر يدخل في علاقة معنا. وعندما يدخل الله في هذه العلاقة مع شخص أو مع مجموعة أشخاص، أو على عدة مراحل وبنفس الطريقة وبنفس المفعول الخلاصي، فلا يعود مهمًّا بالدرجة الأولى أي صيغة أو نوع أدبي أو صور غير مألوفة أو مبالغات تستعملها للتعبير عن هذا الحدث الذي حدث حقا: المهمّ أنك تحاول التعبير عنه.

هذه هي المسيحية : هي أساساً حدث حقيقي وتاريخيّ، حتى ولم يكن مؤرخاً ومؤرشفاً! وهذا هو الإيمان: إنه تعبير عن حقيقة معيوشة والكلمة التي

يعبر بها الإيمان عن خبرته هي دائمًا تاريخية بكل معنى الكلمة، خاصة عندما تصبح هذه الخبرة "علمية" ومبرهنة من خلال تكرار هذه الخبرة ذاتها في الزمن وفي حياة أشخاص عديدين ومختلفين. هذه هي خبرة الأناجيل بالنسبة إلى حدث يسوع المسيح الإنسان ومسيح الإيمان.

الكلمة لها علاقة بالحبّ. المفهوم الشرقيّ عن الكلمة قريب جدّاً من هذا. لقد فقدت الكلمة اليوم كثيراً من قيمتها؛ جعلناها تنحط. نحن ممتلؤن من كلمات فارغة، ونعيش في عالم مليء بكلام بدون معنى. لذلك لا نستطيع أن نصدق كلمة صادقة إلا إذا وجدنا لها براهين، ولا نفهم بسهولة بساطة الكلمة الإنجيلية.

أذكّركم بما تعرفونه، وهو أن هذه الكتب قد تكوّنت انطلاقًا من تقاليد شفهية عريقة، تحوّلت إلى تقاليد أوسع من خبرة التبشير والتعليم، ثم وضعت على مراحل في كتب. ماذا كان أول حدث في الجماعة المسيحية الأولى؟ أوّل حدث في هذه الجماعة أنّ يسوع المسيح الحيّ والقائم من الموت، يغيّر حياتهم. فيختبرون قدرة حدث قيامته على إخراجهم من موتهم إلى حالة جديدة لم يعد فيها للموت من سلطان عليهم. وهذا الحدث نفسه يدعوهم لإعلانه. وعندما يفعلون يتكرر هذا الحدث مجدّدًا وبنفس المفعول الوجودي المحسوس في الذين يقبلونه. ليس الأمر خبرًا ينتشر بل حدثٌ تاريخيٌّ ويتكرر في التاريخ. ولأن هذا الحدث حقيقيّ، فهو يخلق الشركة بين الذين يقبلونه ويختبرونه. بعد ذلك يحاول هؤلاء أن يعبّروا عن هذا الحدث بكلمة ما، بقصة ما، بطريقة تصبح هذه الكلمة–الحدث موضع احتفال ليتورجيّ جماعيّ. ليست الليتورجيا هي التي تخترع الأحداث، بل الحدث هو الذي يولد الليتورجيا ويجعلها حية، والليتورجيا بدورها تتطلب تدوين الأحداث وقراءتها في الجماعة.

هذا هامّ جدّاً. تسبق الكتبَ خبرةٌ وحياة. الشيء نفسه يحدث إذا تكلّمنا عن الكنيسة الأولى. **الكنيسة في البداية بدأت بالتبشير والإحتفالات والعيش. يسوع المسيح لم يترك أي شيء مكتوبًا. يسوع المسيح هو حدث تاريخيّ: الخليقة البشرية**

تخطّت الموت، وهذا القائم من الموت هو عمل الله لكل البشر. جُعل روحاً مُحيياً. هذا الإنسان الجديد هو الشركة، الشركة الكاملة مع كل البشرية، لدرجة أنه شمل كل إنسان في الحبّ. إنسان الروح هذا هو يسوع المسيح. الرسل شهود على ذلك لأنهم اختبروا أنّ يسوع المسيح حيٌّ فيهم، ويجعلُهم قادرين على أن يُحبّوا ببعد الصليب بواسطة الروح القدس الذي نالوه. فالكنيسة توصل هذه الحياة التي اختبرتها. وماذا يمكن أن يكون تاريخيًا أكثر من ذلك؟

الكنيسة لا تولد من كتابات (فهي ليست ديانة كتاب)، بل **من حدث الروح القدس الذي يُعطيهم إيّاه. يسوع يرسلهم. إنهم عندما يذهبون للتبشير يذهب يسوع المسيح القائم معهم. والذين يؤمنون بيسوع المسيح ويقبلون كلمة الخلاص، يمتلئون هم أيضاً بالروح القدّس، وفيهم يحيا يسوع القائم وتولد بينهم الشركة (الكُوينُونِيَّا).**

هي الكلمة نفسها التي قالها الملاك لمريم. فمريم قبلت الكلمة، والكلمة كان لها القوّة أن تُحقق ما وعدت به. هذه الكلمة هي كلمة الله، لأنها خرجت من فم الله، وتُحقق دائماً رسالتها. هذه الكلمة ليست أفكاراً أو أشياء للمعرفة. فالمسيحية للبسطاء. كم كانت بسيطة العذراء مريم، التي تسلّمت هذه الكلمة التي أتَتْها بخبرٍ مفرح من قبل الله، وقد قبلتها: "إبتهجي يا مريم، لأنّ منك سيولد المسيح! مباركةُ أنت لأنك آمنتِ، قبلت هذه الكلمة وحفظتها في قلبك!" (لو١: ٤٢).

كلمة الله هي دائماً حدث. إنها شيء يأتي ويتحقق. فهي ليست محاضرات تشرح أشياء. كلمة الله هي فعل.

يقول القديس لوقا: "بما أنّ كثيراً من الناس أخذوا يدوّنون رواية **الأمور التي تمّت عندنا**، كما نقلها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهود عيان للكلمة، ثم صاروا خدّاماً لها، رأيت أنا أيضاً، وقد تقّصيتها جميعها من أصولها أن أكتبها لك مرتّبة، يا تاوفيلس المكرّم، لتتيقّن صحّة ما تلقّيت من تعليم" (لو١ : ١–٤).

بتعبير آخر، فالكتابة، بكونها ملخصًا وتعبيرًا جامدًا عن الأحداث المعاشة، فهي لا يمكن أن تفهم إلا في الإطار الذي أوجدها، أعني: اختبار الحدث

الخلاصي في التاريخ، وهذا هو الإيمان، والاحتفال به الذي يجعله حاضراً وفاعلا عبر الزمن، وهذه هي الليتورجيا.

الكلمة– الحدث المحتفل به هي أكثر بكثير من الكتب. المسيح القائم يفتح ذهن الرسل حتى يفهموا الكتب (لو٢٤ : ٢٥–٢٧). لذلك كل الوثائق القديمة هي ليتورجيات وترانيم فرح.

٢– يسوع التاريخي بين البحث التأريخي والفهم اللاهوتي

ما قلناه لا ينفي أهمية البحث التاريخي المتجرد بل بالعكس. يجب الاعتراف بأهميّة البحث التاريخي الموضوعي عندما يكون ذلك ممكناً ومبرهناً من الناحية العلميّة.

ولكننا في عصر انقلبت فيه الأمور: فاللاهوتيون يتواضعون ويصغون إلى نتائج الأبحاث التاريخية ويقيّمونها، وأكثرهم يعترفون بأهميّة البحث النقديّ للتاريخ، طالما أنه يعترف بالتجسد كحقيقة تاريخية ملموسة، وليس مجرّد مظهر خارجي. كما أنهم يقدرون أهمية البحث عن أصول النص وتطوّره الديني واللاهوتي من خلال الـ Formgedchichte والـ Traditionsgeschichte والـ Redaktionsgeschichte، معترفين بأن لهذا البحث فائدة كبيرة في توضيح تاريخيّة النص، ومراحل تكوينه، ومصادره، والأشكال التي لبسها في حلّته الأخيرة للتعبير عن الرسالة التي كتب لأجل إيصالها.

بالعكس عن المؤرخين، فهم في غالبهم عقائديون. المشكلة هنا، كما يقول R. E. Brown، هي عندما يطبّقون على يسوع المنهجيّة الناقدة للتاريخ بادّعاء علميّ غير صحيح، إذ ينطلقون بأفكار مسبقة رافضة لإمكانية الأحداث الفائقة الطبيعة(١). والدكتاتوريّة الإيمانيّة والأفكار الدينيّة المسبقة التي اعتبر أصحاب هذه الأبحاث العلمية تحرير شخص يسوع التاريخي منها كما يدّعون انتهت

(١) Cité dans Ch. DUQUOC, p. 495.

بفرض دكتاتورية جديدة حول الـ "يسوع" الذي يريدون هم أن يفرضوه بأفكارهم المسبقة اللادينيّة.

وإذا كانت الكنيسة والتقليد قد "بَالَغَا" في التعبير عن شخص يسوع بطريقة ما، بإبراز مكونات شخصيته الإيمانية على حساب شخصيته البشرية، هكذا يقولون، ولكنّهما لم يسقطَا أبداً على النصوص مفاهيم مغايرة لنوايا كتّابها وإراداتهم الأساسيّة في النص الذي كتبوه !

أمّا أولئك العلماء فقد أعطوا أنفسهم الحقّ، بدون اي حجج علمية أو تاريخية موضوعيّة، أن يستنتجوا، ومن النصوص نفسها، ما لا تريد النصوص أن تقوله: فهل يعقل أن أستعمل شهادة إنسان ضدّه إذا لم يكن عندي أي مرجع آخر سوى هذه الشهادة ! الحالة الوحيدة هي التي أكون قد قرّرت فيها مسبقاً أنه كاذب أو أنه مريض باختراع القصص الخياليّة (Fiction).

أمّا رفض الكنائس للمنهجيات الناقدة للتاريخ في البداية، وقبولها به بعد التشبّث بهذه المنهجيات من قبل أصحابها، والادّعاء بأن هذا ما سيحدث عاجلاً أو آجلاً أيضًا بالنسبة إلى موضوع المبالغة الحالية في البحث عن يسوع تاريخي بمعزل عن الصورة الإيمانية، لا بل باستبعاد مسبق ونهائي لها، فهو في غير محلّه، لأن منهجيّة النقد التاريخي نفسها طوّرت نفسها، بحيث تحرّرت من الحماس الأول الذي دفع بأصحابه إلى الاعتقاد بنوع من عصمة هذه المنهجية عن الخطأ، وقدرتها على إيجاد النص الأصلي الخالص، فعادت واعترفت بمحدوديّتها في البحث وفي الاستنتاجات، وخاصة بعد سقوط أحد أهمّ "عقائدها"، أعني موضوع المصادر الأربعة اليهوية والألوهيّة والاشتراعية والكهنوتية، وخلط الأوراق من جديد من خلال استعادة أهمية النص بحدّ ذاته، والمقاربات الإجمالية التي عادت تبرز أهميّة الصيغة النهائيّة في النص من دون استبعاد أهميّة فهم تاريخ تكوينه أو مصادره.

وأعتقد اننا ننتظر بعض التواضع العلمي من أصحاب نظريات البحث التاريخيّ الخالص عن يسوع، طالما أننا لم نشهد من أعمالهم أيّ تغيير يذكر في فهمنا الأساسي لشخص يسوع كما يظهر في العهد الجديد من شهادة واضعيه.

ويجب الاعتراف أن البحث عن يسوع محرّر من "البُعد الديني" هو في الغالب بحث عن يسوع محرّر من النص نفسه ومن الجماعة التي أنتجته في معرفتها الناضجة والأخيرة له في تجلّيه الكامل لها. وكأني بك تلتقي بإنسان يخبرك عن إيمانه الحالي، ويقرأ لك أحداث حياته على ضوء هذا الإيمان، وأنت تصرّ على فهم هذا الإنسان الذي أمامك انطلاقاً من بعض المعلومات غير الموثقة عن تاريخه، وتصرّ على أنك تعرفه أكثر من نفسه، وتفهم من هو أكثر ممّا هو يفهم من نفسه.

هذه هي إذاً نتيجة البحث عن يسوع التاريخي دون يسوع الذي اختبره الرسل والجماعة الأولى. لذلك فإذا كان لابدّ من البحث التاريخي عن عناصر في واقع يسوع ومحيطه، وعن أقواله التي نعتقد بأنه قالها بنفسه (logia)، وإلى ما هنالك من أبحاث مهمّة، وإذا كان على الباحث اللاهوتي أن يعترف بتواضع بحاجته إلى هذه الإضاءة التاريخية لفهم يسوع التاريخي الذي يقرأ عنه في النص المقدّس، فإنّ بعض التواضع لا يضرّ الباحثين التاريخيّين إذا ما قبلوا بأن يخضعوا بحثهم إلى عنصر تاريخي أكيد، وهو معرفة الجماعة الأولى لهذا الرجل الذي يبحثون عنه، وأن يقبلوا بتواضع الانطلاق من "مصداقيّة" النص في عناصره الأساسية التي بدونها يصبح البحث التاريخي مجرّداً من مكوناته العلمية نفسها، وأهمّها الارتكاز على الشهادات الحيّة للأحداث.

طبعاً، إذا كانت كتابة قصة حياة يسوع التاريخي من قبل A. Schweitzer وجيل الباحثين الذين تلوه قد وصلت إلى الفشل الذريع، وإذا كان R. Bultmann قد توصّل إلى اعتبار أنّ يسوع الإيماني هو مجرّد نتاج للجماعة الأولى ولا علاقة له بيسوع التاريخي(٢)، وراح يحاول من خلال المقابلة مع الديانات الأخرى والآداب الدينية الأخرى أن يظهر البُعد الميتولوجي لكثير من نتاج هذه الجماعة الأولى، فإنّ موقف هذا الأخير يبقى الأصوب في فهمه لجوهر الموضوع عن يسوع التاريخي، أي أنه هو الأقرب إلى الحقيقة في اعتباره أن يسوع الذي وصل إلينا من خلال الكرازة هو وحده الذي يمكن أن نبني إيماننا ووجودنا عليه.

(٢) راجع Ch. DUQUOC, p. 495-496 et 501.

مشكلة Bultmann هو فصله بين نتاج الإيمان والتاريخ، مع أنّ الحقيقة البديهيّة في علم الكتاب المقدّس تفترض معرفة أن إيمان الكتاب المقدس كله هو إيمان تاريخيّ، أي أنه قائم على أحداث تاريخية، وإن كان الذين نقلوها في صيغتها الشفهية أولاً وكل الذين كتبوها قد عبّروا عن هذه الأحداث التاريخية الإيمانية بأنواع أدبية وأساليب تعبيريّة مختلفة، وزادوا عليها خبرتهم الخاصة، وأصدروها بطريقة تحاكي الناس الذين يوجهونها إليهم لإيصال هذا الاختبار التاريخي الإيمانيّ لهم أيضاً (راجع المقطع السابق).

أليس هكذا تكوّن تقليد الفصح والخروج وغيره من تقاليد الإيمان الكبرى في العهد القديم؟ أوليس الأمر عينه صحيحًا بالنسبة إلى تقليد الإيمان المسيحيّ الأول الذي يذكره مار بولس في ١قو ١٥ وغيرها من المواضيع، وتؤكّده الأناجيل مجتمعة، وإن ولدت في أماكن مختلفة، وتطوّرت أدبياً ولاهوتياً في بيئات مختلفة؟ فهناك ثابتة التقليد الرسولي الأول انطلاقا من الكريغما الأول، والذي يريد أن يبحث عن التاريخ حقاً، لا يستطيع إلاّ أن يبدأ من الكريغما المسيحيّ الأوّل الذي نجده في أعمال الرسل في كرازات بطرس وبولس. ولا يخفى عن أحد ثبات هذه العناصر التاريخية الإيمانية في كلّ العهد الجديد. وهذا الثبات مصدره صحة التقليد التاريخية، وإن لم نبرهن عن تأريخية كل العناصر التي عبر هذا التقليد التاريخي الإيماني عن نفسه من خلالها.

وهنا أذكر قولاً لـ Christian DUQUOC عندما يؤكد: "إنّ نصَّ العهد الجديد ليس محضراً من شرطي يصف الحدث، بل هو نتاج عمل أدبي يهدف إلى إنارة معنى الأحداث والوقائع والكلمات (الخاصة بيسوع) والتي يمكن أن تصبح، من غير هذا الجهد الأدبيّ الدراميّ، مجرّد صور أو قصص خرافيّة لا قيمة لها". يعبّر هذا النص عن إرادة فردية أو جماعية تريد المساعدة من خلال التعبير اللغوي على إظهار الواقع الذي يتكون في الحياة اليومية ومن خلال الأحداث، ولكنه يبقى مخبّأً في داخلها(٣). يعبّر هذا النص بشكل جيّد عن المنهجية التفسيريّة

(٣) راجع Ch. DUQUOC, p. 503.

الجوهرية لقراءة أيّ نصّ من نصوص الكتاب المقدّس، والتي لابدّ منها للقيام ببحث علميّ بما في ذلك البحث التاريخي.

وبالارتكاز على رأي كاتب آخر، J. MOINGT ، فإنّ "يسوع التاريخي هو الذي تحدّد وجوده القصص الإنجيلية التي يجب قبولها كشهادات تاريخية. حتى ولو لم تتم معرفتها بحسب المنهجيات الخاصة بعلم النقد التاريخي أو البحث التاريخي"(٤).

الإدعاء بأنّ هناك "بُعداً" بين يسوع التاريخي ويسوع الإيمان (J. Schlosser J.-N. Aletti)(٥) هو فرضيّة صحيحة، ولكنها لا ترتكز على أي معطى تاريخي ثابت ومبرهن، بل على فرضيّة مسبقة بأنّ يسوع الإيمان هو من نتاج مخيلة الكنيسة الأولى لما يفيدها في نشر الإيمان به. وهذا ادّعاء في غير محله، بحسب منهجية العلم التاريخي نفسه.

إن علم التاريخ نفسه ليس مطلقاً، كما يقدّمونه ، أي بحثًا موضوعيًّا يرتكز على المعطيات الأكيدة فقط والموثقة...، ولكنها ليست الوحيدة. فكما يقول قاموس Le Robert historique ص ١٧٢٤، فإن "التاريخ الموضوعيّ" ليس الذي يدّعي الوصول إلى نوع من "الحدث المجرد"، وهذا وهم كلّي، بل الذي يقدّم الماضي في قصة قائمة على الأحداث ونتائج هذه الأحداث".

التاريخ ليس علماً، بل فطنة، كما يقول Paul Verne. هو ليس مهمًّا إذا ما اكتفى بإخبار ما حدث، بل هو يتّجه إلى فهم الحدث، وإلى التعبير عنه بخلاصة استنتاجيه. يطرح J. Moingt إمكانية التمييز بين يسوع التاريخي (بحسب الإنجيل)، وبين يسوع التاريخ الذي يبحث عنه المؤرّخون. يبقى أنّ هذا الكاتب أيضاً يفترض أولوية البحث التاريخي عن يسوع في إطار الكرازة التي أعلنته وليس بمعزل عنها، دون أن يغلق بابه على أيّ معطيات تاريخية من نتاج المؤرخين(٦).

(٤) راجع J. MOINGT, p. 519.
(٥) راجع J. MOINGT, p. 516.
(٦) راجع J. MOINGT, p. 517-519.

من هنا الضرورة القصوى لعدم شعور الباحثين اللاهوتيين والمفسّرين المسيحيين بنوع من الدونية إذا تمسكوا بمعطيات الإيمان، وهم يبحثون بالوسائل كافة عن كل المعطيات التاريخية الممكنة عن شخص يسوع ومحيطه، ولهم الحرية المطلقة في استعمال المرتكزات التفسيرية التي تناسب النوع الأدبيّ الخاص بالنصوص التي تتكلم على يسوع، أعني الكرازة والإنجيل.

فالمشكلة الأساسية هي لدى الذين يدّعون البحث التاريخيّ المجرّد، فيبدأون بادّعاء حريتهم في التصرّف بالنصّ الإنجيليّ بمعزل عن مضمونه الإيمانيّ (وهذا صحيح)، ولكنّهم ينتهون بنفي أي صفة تاريخية لأيّ حقيقة يشهد لها النص إنْ لم تدخل في ما يستطيعون برهانه بطريقة عقلانيّة ومحسوسة. وهكذا نعود إلى المعضلة التي يلاحظها الجميع، بأن هؤلاء يعجزون عن كتابة حياة يسوع كما يرغبون، لأنّ في الغالب لا وصول لهم إليها إلاّ من خلال معطيات فرضية (وهل هذا تاريخ؟) أو مجزّأة (وأي صورة واضحة من خلال الجزء بدون الكل؟).

أعتقد أنه آن الأوان للعودة إلى كتابة تاريخ يسوع المسيح المتجسّد الذي هو حتى الآن أفضل تعبير ذي مصداقية عن حقيقة يسوع التاريخيّ بمكوّناته المتكاملة. وعلينا أن نتخطّى وَهْمَ إيجاد يسوع آخر مختلف جذريًا عن يسوع الأناجيل.

أقترح كطريقة علمية للبحث عن يسوع التاريخي البحث بحسب واحد من هذين النموذجين:

النموذج الأول: التنقيب الأركيولوجي، تنقيب أفقي وعامودي (synchronique et diachronique)، وهو المعمول به حتى الآن، على ألاّ يصل المفسر إلى أي استنتاج نهائيّ بالارتكاز على الواحدة دون الأخرى.

النموذج الثاني: تطور حياة الإنسان من الصغر إلى النضوج؛ أيّهما الحقيقيّ: الولد والمراهق...، أم الرجل الناضج أمامنا؟ وهل معرفة أحداث محددة من حياته الماضية تكفي لنعرفه في ما وصل إليه الآن من دون أن تعرفه الآن؟ وهذا النموذج يفترض إعطاء مصداقية جوهرية لشهادة النص على أن يجري البحث

التاريخي لتبيان دور الأساليب والأنواع الأدبية في خدمة التعبير عن هذه المصداقية.

أعتقد خاصة، وهذا جوهر الموضوع، أننا نحتاج إلى العودة إلى دراسة النصوص من جديد في داخل الجماعة المسيحية الحية كإطار واقعي تجسدي يسمح للنص المكتوب بأن يتحقق من جديد بطريقة ملموسة وتاريخية في الجماعة، ويعيد إليه مفاعيله في قلب الاحتفال الليتورجي.

وهنا أرغب في أن أعطي مثلاً بسيطًا يوضح ما أقوله من خلال أعجوبة شفاء الممسوس في إنجيل مرقس.

٥- خلاصة دراسة نقد تاريخية لنص مر ٥: ١-٢٠

أوّلاً: النقد الأدبي

بنية النص

مقدمة وشرح للمرض (آ ١-٥)

يسوع والروح النّجس (آ٦-١٣)

تصرّف الشهود (آ ١٤-١٧)

تصرف الرجل الذي شفي (آ ١٨-٢٠)

تكرار الأفكار

آ ٢ و٦ لقاء المسيح بالممسوس

آ ٣ و٥ ذكر سكن الممسوس بين القبور

آ ١٠ و١٢ توسّل الروح النجس

آ ١٤ و١٦ إخبار الرعاة للحدث

ملاحظات لاحقة عن أشياء حدثت مسبقا دون أن تذكر في حينه:

راجع الآيات ٦ و٨ و١٥ج و١٦ب.

استخدام مفردات مختلفة لنفس الموضوع:

١– القبور: استخدام mnymeion آ ٢، nyma آ ٣ و٥.

٢ – الممسوس: استخدام كلمة daimonizomenos آ ١٥ و١٦.

وكلمة daimonistheis آ ١٨.

ثانيا: البنية الأدبية والنوع الأدبي

هذا النص هو قصة معجزة أو بالأحرى قصة إخراج شياطين من رجل ممسوس. هذا النوع الأدبي يتميز بالبنية التالية:

اللقاء بين المعزّم والممسوس (آ ٢)

ردة الفعل الدفاعية من الروح النجس (الشيطان آ ٦–٧)

الأمر بالخروج الموجه من المعزّم للشيطان Apôpompe (آ ٨)

خروج الروح النجس، مع إعطاء برهان على خروجه (آ ١٣)

اندهاش المشاهدين (آ ٥ و٢٠) وإذاعة صيت المعزّم (آ ١٤أ و١٨–٢٠)

ولكن هذا النص يتضمن أيضا عناصر من قصص قديمة عن شفاءات عجيبة وهي:

وصف دقيق للحالة الاستثنائية للمرض ولصعوبة شفائه في محاولات سابقة (آ ٣–٥)

البرهان الحسّي على شفاء الشخص المريض (آ١٥)

خوف الحاضرين أمام ما حصل (آ ١٤ و١٦–١٧)

وأخيرا، يتضمن هذا النص أيضا بعض عناصر رتبة ليتورجية لطرد الشياطين:

سؤال المعزّم للروح عن اسمه (آ ٩)

توسل الروح إلى المعزم لكي لا يعذّبه (آ ١٠–١٢)

السماح للشيطان بالدخول في مكان جديد Epipompe (آ ١٢–١٣أ)

بالنسبة إلى المقارنة مع بعض المصادر القديمة، لدينا ما يلي:

الاعتقاد بسكن الشياطين في أماكن القبور مرتبط بكونها أماكن نجسة.

السجود ليسوع وردة فعل الشيطان الدفاعية والاعتراف بأنّ يسوع هو القدوس... كلها علامات على تفوق يسوع "الممجد" على الشيطان.

وصف حالة الممسوس يمكن مقارنتها بنصّ أش ٦٥ ومز ٦٧: ٧.

دخول الشياطين في الخنازير مواز لقصص مصرية وفارسية قديمة تربط بين طرد الشياطين وتعذيب الخنازير بدلاً من الممسوس.

ملاحظات تخص علم التوبوغرافيا والأركيولوجيا

الجراسيين = جرش؟ وهي إحدى المدن العشر، ولكنها على بعد ٥٥ كلم من البحيرة.

الجرجسيين = كورسا المكتشفة حديثًا، وفيها منحدر عال على البحيرة، ولكن لا آثار فيها للقبور.

وغدارة، وهي التي تبعد عشرة كلم شرق البحيرة، وهذا يطرح من جديد مشكلة سقوط الخنازير في البحيرة.

الاستنتاجات كثيرة ولكن أهمها:

لا شك في أنّ الدراسات التاريخية والنقد التاريخي مفيدة جدًا في إظهار حقيقة تطور النص من القصة الأولى التي تتكلم على فعل شفاء في منطقة وثنية، ثم أدخلت عليه عناصر التعزيم (أو العكس)، ثم صار النصّ جزءًا من رتبة تعزيم ليتورجية ذات طابع كنسي، فأدخلت عليه عناصر الرتبة (هذا يذكرنا بطريقة غير مباشرة برتبة يوم التكفير عند اليهود). أيضًا إدخال عنصر البحيرة قد يكون ذات طابع لاهوتيّ مرتبط بالاعتراف الكنسي بألوهية المسيح.

كل هذه المعطيات وغيرها تساعد في إمكانية فهم أفضل لبعض العناصر الأدبية والتاريخية واللاهوتية التي قد تكون ساهمت في تكوين النص. ولكن:

– ولا واحدة منها أو كلها مجتمعة تستطيع أن تؤلّف قصة متكاملة من دون العنصر الأساسيّ البسيط للنص، والذي هو في أساس القصة، أعني حدث الشفاء أو طرد الشيطان أو الاثنين معًا.

– إن البحث العلمي عن تاريخية الحدث لا يمكن إلا أن يعترف بوجود تقليد عريق حول عمل شفاء أو تعزيم استأهل أن ينمو ويتطور إلى أن بلغ حالته الحاضرة، مما يؤكد مصداقية المصدر التاريخي للقصة، وثباتها في التقليد اللاحق، وبخاصة تحوّلها إلى جزء من رتبة ليتورجية تدعي استحضار نفس مفعول هذا الحدث في قلب الجماعة المحتفلة به، في ما نسمّيه التذكار الخلاصي.

– إن القول بأن هذا الحدث ليس تاريخيًا، أو أنه لا يعود إلى تقليد عريق من حياة يسوع التاريخي، يفترض واحدًا من اثنين:

* إمّا أنّ التقليد الأوّل الذي اخترع هذا الحدث يعود إلى مصدر ذات مصداقية رسولية مباشرة من أحد الرسل أو المقربين من يسوع، وعليه نفهم قبول هذا التقليد لاحقًا وتطوّره، ولكننا عندئذ لا نفهم قبول هذا التقليد في الجماعة الأولى طالما أنه غير تاريخي!
* أو أنّ هذا التقليد حَدَثَ تاريخيًا، وأيًّا يكن مصدره الأول، فقد استحقّ أن يصبح حدثًا محتَفَلاً به.

الشيء الوحيد الذي يبقى لتأكيد عدم تاريخية هذا الحدث هو قراءته بحكم مسبق أن العجائب أو التعزيم أمر غير ممكن لأنّه غير عقلانيّ.

خاتمة

هذا المثل الذي أوردته سريع، ويحتاج إلى مزيد من التوسّع في البراهين التي

تُساق عادة للبرهان على عدم تاريخية كل حدث غير اعتيادي، ولكنّ النتيجة لا تتغير كثيرا، فنقطة الانطلاق هي دائمًا الحكم المسبق على عدم إمكانية حدوث الخوارق.

المسألة بسيطة:

– فإما أن نقبل بهذا الافتراض المسبق، وعندها علينا التناغم مع أنفسنا واعتبار كل ما يقال عن دخول السماوي في عالمنا ضربًا من الخيال، هذا إذا كان هناك من عالم سماوي، طالما أنه غير عقلاني؛

– وإما ننطلق من ثقة ثابتة بمصداقية محرر التقليد الأول للقصة أو الحدث، وكذلك بالذين أكملوا هذا التقليد لاحقًا، وأغنوه بخبراتهم، وعبّروا عنه بأنماط أدبية مختلفة، وعندها نعتبر أن كلّ نصّ يستحق قراءته بطريقة موضوعية، أي بالإصغاء إلى الحقيقة أو الحقائق التاريخية التي يعبر عنها كنتاج لخبرة واقعية واحدة، أو عدة خبرات متراكمة، استحقت أن توضع في هذا القالب. في هذه الحالة، يصبح البحث العلمي والتاريخي موضوعيًا وعادلاً على طريقة "كل متّهم بريء إلى أن يثبت العكس"، أي كلّ نص في الجوهر حقيقي ويستحق المصداقية في جوهره، إلى أن يثبت العكس.